العرب
السبت 2019/10/05
السنة 42 العدد 11488

سيد مقتدى أنت اليوم خارج الحلبة

فاروق يوسف
كاتب عراقي

لطالما نجح مقتدى الصدر بشعبيته ووطنيته وتبنيه أحلام الفقراء. كل ذلك صار في ليلة وضحاها من الماضي.

فرجل الدين الشيعي الشاب سبقته الأحداث حين امتلأت شوارع المدن العراقية وساحاتها بالمحتجين الشباب من غير أن يكون له صوت يُسمع.

لن يصدّق مقتدى الصدر بأنه لم يعد رقما صعبا في المعادلة السياسية؛ فما لم يتمكن من إنجازه خصومه السياسيون، استطاع الشباب المحتجون من الوصول إليه بتلقائية لا يمكن توقعها

كانت صورته وهو يتوسط خامنئي وسليماني في طهران قد خيبت آمال الكثير من أتباعه والمعجبين به. لقد صدمهم أن يظهر باعتباره إيرانيّ الولاء. يومها فقد الكثير من هالته.

وفي واقع الأمر فإن الصدر لا يختلف عن سواه من أقطاب العملية السياسية في العراق. فهو موجود بإرادة قائمة على تسوية أميركية- إيرانية. وهو فاسد لأنه يموّل تياره من أموال الدولة العراقية. كما أنه طائفي لأنه يقود ميليشيا سبق لها وأن ارتكبت مجازر في حق العراقيين.

إذا ما كان الشيوعيون قد ارتضوا بناء على موقف انتهازي أن يكون الصدر زعيما لهم فإن ذلك لا يعني أن الرجل قد كف عن خداع الفقراء بعمامته وصار داعية لقيام دولة مدنية.

ما لم يقله الشيوعيون هو أن الصدر يعتبر قيام دولة مدنية نوعا من الكفر.

لقد تحدث طويلا عن الكفاءات التي يمكن أن تدير الدولة. لكننا ينبغي أن نكون حذرين في تفسير المعنى الذي يقصده.

فالظرف الذي جعله زعيما لا بدّ أن ينتج كفاءات من نوعه. وهو ما يعني أن الحثالة لا يمكن أن ترشح إلا حثالة من نوعها. فالصدر لا يمكن أن يعلو على واقعه الثقافي الرث. لذلك كان النواب والوزراء الذين اختارهم من تياره لا يختلفون في انحطاطهم وتخلفهم وتدني معرفتهم وفسادهم عن نواب ووزراء الكتل السياسية الأخرى.

اليوم يجد الصدر نفسه معزولا.

الشباب الذين خرجوا محتجين في مختلف المدن العراقية لم يكتفوا برفع شعارات تتعلق بالخدمات الأساسية التي صارت في حكم الميؤوس منها بل إنهم رفعوا شعارات تطالب بتغيير النظام السياسي وإسقاط نظام المحاصصة الطائفية التي استفاد منها الصدر وأشباهه وحصلوا من خلالها على شرعية سلطتهم الزائفة.

ولأنه قصير النظر في رؤيته للتاريخ كما هو حال سياسيي العراق الجديد فقد توقع الصدر أن تكون الاحتجاجات محدودة وستنتهي "لأنها لم تحظ بمباركته". غير أن ما لم يكن يتوقعه هو أن تنضم المدن التي كان يعتبرها محميات لشرعيته إلى الانتفاضة الشعبية التي تميزت بتلقائيتها.

لقد خسر الصدر رهانا، كان يشكل جزءا من قوته في مواجهة القوى الشيعية الأخرى. عبّر عن محدودية ذكائه يوم أعلن عن إيرانيته. لذلك فإنه لن يستعيد مكانته حتى بالنسبة لأتباعه الفقراء الذين صاروا يدركون أن دولتهم الثرية تخدعهم من خلال خطبة الجمعة التي يلقيها ممثل المرجع الأعلى السيستاني.

فبعد أن وصل مقتدى الصدر بنفسه بـ"وطنيته" إلى الحضيض ها هم الشباب المحتجون يفضحون بأصواتهم الهادرة كذبة شعبيته. فالرجل لا يملك مشروعا وطنيا حقيقيا للتغيير. كان في السابق يمارس دورا كيديا ضد خصومه الشيعة من أجل كسب ودّ إيران.

وإذا ما كان الصدر يحاول الآن استدراك ما فاته فإنه لن يتمكن من النجاة بنفسه من مركب العملية السياسية الغارق. ذلك لأنه كان واحدا من صناع ذلك المركب وكان واحدا من أكبر المستفيدين منه.

لقد أنتجت إمبراطوريته عددا من كبار الفاسدين الذين لن يتمكن سؤال من نوع "من أين لك هذا؟" من اللحاق بهم والتحقق من ثرواتهم. ذلك لأنهم كانوا قبل الارتباط بحركة الصدر مجرد شحاذين يعتاشون على المعونة التي يوفرها نظام الإعانة الاجتماعية في دول اللجوء.

لن يصدّق مقتدى الصدر بأنه لم يعد رقما صعبا في المعادلة السياسية؛ فما لم يتمكن من إنجازه خصومه السياسيون، استطاع الشباب المحتجون من الوصول إليه بتلقائية لا يمكن توقعها.

سيد مقتدى أنت اليوم خارج الحلبة.

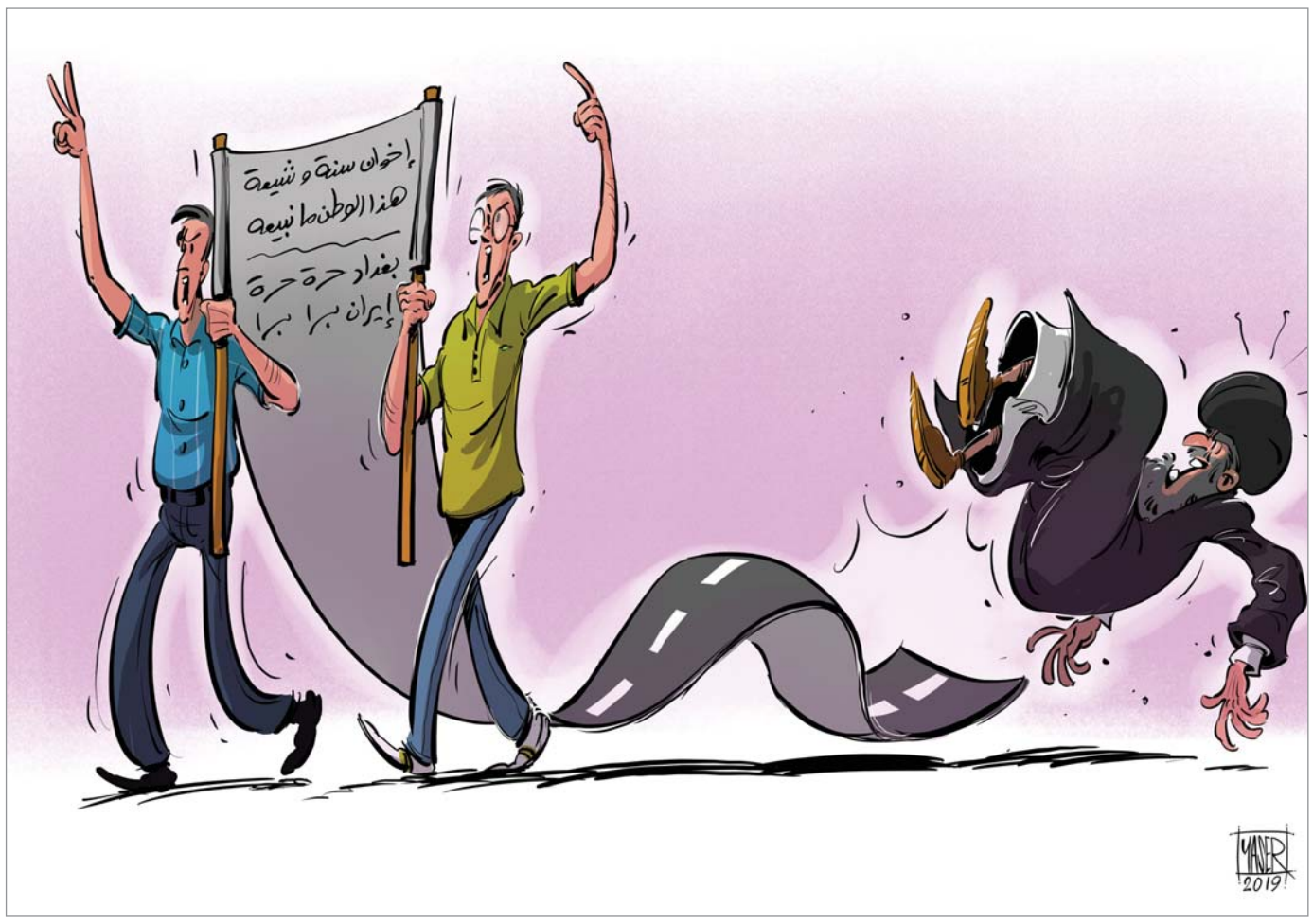

تظاهرات العراق تصب غضبها على إيران

سلام السعدي
كاتب فلسطيني سوري

تتواصل التظاهرات الشعبية في العراق ويتواصل معها ارتفاع أعداد القتلى في كل يوم وبصورة غير متوقعة. فرغم اعتياد مشهد التظاهرات الشعبية التي تحدث بصورة متقطعة منذ نحو عامين، جاء رد الحكومة العراقية أكثر عنفا بصورة تشير إلى استنفاد كل وسائل الضبط والهيمنة التي تم اتباعها في السنوات الماضية، إذ لم يبق سوى العنف المفرط لإخماد موجة الاحتجاجات.

فمن جهة، انتهت الحرب على تنظيم داعش والتي كانت توحّد العراقيين وتجعلهم يكتمون أوجاعهم الداخلية الناتجة عن فساد وتهتك النظام الاقتصادي والسياسي الذي تديره النخبة الحاكمة. سقطت ذريعة مواجهة داعش من يد الحكومة العراقية التي استخدمتها كسيف مسلط على رؤوس العراقيين، كان دوما يمنعهم من الاحتجاج بانتظار زوال الخطر الداعشي المحدق بهم. وفضلا عن ذلك، ليس بإمكان الحكومة العراقية حل المظالم التي يشتكي منها العراقيون، وهي تتعلق بغياب التنمية الاقتصادية والاجتماعية وغياب فرص العمل والحد الأدنى من الخدمات الحكومية. الحقيقة أن هذا الأمر لا يتطلب سياسة مختلفة عن تلك المنتهجة حاليا من قبل النخبة السياسية بل يتطلب نخبة جديدة. وهذا ما يفسر العنف المفرط الذي توظفه الحكومة العراقية للدفاع عن وجودها ولمنع الوضع الأمني من الخروج عن السيطرة.

أما السبب الثاني الذي يدفع السلطات العراقية نحو العنف فهو استهداف التظاهرات للنفوذ الإيراني في البلاد. ويبدو أن التركيز على إيران جاء ليحل مشكلة طالما واجهتها التظاهرات العراقية في السابق، وهي غياب رمزية معينة يجري توجيه النقمة الشعبية والتظاهرات ضدّها.

فحيث تخرج التظاهرات الشعبية في بلدان العالم، يجري توجه السخط الشعبي على من يمثل الوضع القائم ويرمز له. قد يكون ذلك رئيس الدولة الذي يحكمها بقبضة حديدية أو الحزب الحاكم. ويشكل هذا الوضوح عامل توحيد للمتظاهرين كما أنه يقدم رؤية مبسطة للمشكلة وللحل لجمهور عفوي غير قادر على إنتاج تلك الرؤية في ظل غياب التنظيمات السياسية الفاعلة.

لقد أمكن توجيه النقمة الشعبية في بلدان عربية عديدة، مثل الجزائر والسودان، نحو سلطة مركزية والمطالبة بإنهاء الهيمنة على السلطة وتحقيق مشاركة سياسية بما يسمح بالبدء بعملية تنمية وتطوير. المشكلة في العراق هي أن النظام السياسي ليس مركزيا حيث تتوزع فيه السلطة بين عدد من الأحزاب ينتقد كل منها الآخر كما أنها تصل إلى السلطة عبر انتخابات حرة نسبيا وتخضع للرقابة الدولية.

دفع ذلك المتظاهرين إلى اختيار إيران كرمز للوضع البائس القائم ومهاجمتها في التظاهرات. لقد ازداد النفوذ السياسي والاقتصادي لإيران على العراق منذ الاحتلال الأميركي. وقد عززت طهران من هيمنتها تلك بذريعة الحرب على داعش، فأنشأت ميليشيات الحشد الشعبي التي يتهمها الكثيرون اليوم بالمسؤولية عن العنف المفرط ضد المتظاهرين.

لقد وعد رئيس الوزراء العراقي، عادل عبدالمهدي، والذي وصل إلى السلطة قبل نحو عام، بإجراء إصلاحات كبيرة ومحاربة الفساد وتوظيف موارد الدولة العراقية النفطية بصورة تصبّ في صالح الطبقات الشعبية المتضررة. ولكن، حتى اليوم، لا يبدو المهدي قادرا على إجراء الإصلاحات الموعودة كما أنه عاجز عن ضبط ميليشيات الحشد الشعبي وهو ما عزز نظرة الشارع العراقي للحكومة كجهاز عديم السلطة وتابع للهيمنة الإيرانية ومهمته الوحيدة هي توزيع غنائم السلطة على الأطراف المشاركة. ويبدو الوضع بالنسبة للعراقيين هيكليا، بمعنى أن التحسينات موضعية وطفيفة، ويشمل ذلك انتخابات برلمانية جديدة، لن تحل المشكلة.

ولكن مواصلة التحشيد الشعبي والدفع باتجاه تغيير حقيقي يتطلب الذهاب إلى أبعد من مجرد مهاجمة الهيمنة الإيرانية وإبداء النقمة على الوضع القائم. يتطلب الأمر طرح مطالب قابلة للتنفيذ والدفع نحو تنفيذها واحدة بعد الأخرى تحت الضغوط الشعبية. لا بد من طرح بديل عن النظام السياسي القائم ينهي المحاصصة الطائفية التي تكرسها إيران بهيمنتها الاقتصادية والأمنية. لا يسمح النظام السياسي الحالي ببروز معارضة حقيقية، إذ أن لكل طرف من الأطراف المشاركة حصة ما في السلطة وشبكة من علاقات الفساد والزبائنية، ما يجعل استمرار الوضع القائم مصلحة للجميع. مع غياب المعارضة السياسية الحقيقية غابت مبادئ الشفافية والمحاسبة واستشرى الفساد.

المطلوب، إذن، هو إعادة هيكلة النظام السياسي بما يمنع تقسيم الغنائم على جميع الأطراف كما يجري اليوم ويساهم في بروز تيار معارضة قوي وواضح المعالم يقوم على ممارسة السياسة بما هي صراع بين برامج اقتصادية- اجتماعية. قد يكون ذلك من خلال التحوّل إلى نظام رئاسي أو بإجراء تعديلات جوهرية على النظام البرلماني والدستور.

ويبقى السؤال حول مدى قدرة جماهير عفوية غاضبة وغير منظمة على طرح برنامج محدد للتغيير السياسي. على الرغم من عدم إمكانية التفاؤل بحدوث ذلك في الوقت الحالي، سوف تطرح التظاهرات المستمرة هذا السؤال على العراقيين المعنيين بالتغيير السياسي.

إلى السلاح، ولكن

علي الصراف
كاتب عراقي

شيئان فقط أحبطا مشروع داعش. فشل "سلطة المثال"، وعدم التقدم إلى بغداد. المعروف أن تنظيم داعش اجتاح ثلث العراق، ابتداء من "انتفاضة" مسلحة في الموصل تمكن خلالها من الاستيلاء على معسكرات الجيش وكل موارد السلطات المحلية، بما فيها البنوك. فأصبح من القوة والثراء ما مكنه من التقدم إلى محافظات أخرى، وأن يرسخ وجوده فيها كسلطة بديلة لسلطة الفساد والميليشيات الصفوية التي لا تزال تحكم بغداد.

بدأ تنظيم داعش سلطته بأعمال قتل عاصفة لكل من ارتبط أو شك في ارتباطه بالسلطة الميليشيوية الحاكمة. لم يتورع عن قتل الآلاف، وربما عشرات الآلاف. هكذا خبط عشواء، من أجل أن يثير الرعب في نفوس مسلحي تلك الميليشيات. ونجح فعلا، حتى ساد الاعتقاد بأنه يستطيع أن يستولي على بغداد في غضون أيام معدودات من القتال. ولكنه توقف على التخوم، ليهنأ فسادُه الخاص بما كسب.

استنفرت طهران، كما استنفرت المرجعيات الميليشيوية لمواجهة قوةٍ من نوع مختلف. ولم تكن تلك القوة مجرّد "مجموعات مسلحة" لا تخشى الموت أو تهديه لكل من يواجهها. لقد كانت بالأحرى قوة مستمدة من انحطاط، أو قل سفالة المشروع نفسه الذي تقوده طهران. فهو ما وفر، لعامة العراقيين، مزيج الرهبة والصمت والرضا عما تفعله هذه المجموعات.

ولكن الانحطاط هو الذي انتصر في النهاية. ليس لأنه استجمع قواه، ولا لأنه استجلب قوى خارجية لمحاربة داعش، بل لأن هذا الأخير فشل في أن يقدم "سلطة مثال" قابلة أو جديرة بالحياة.

الإسلام قوة معنوية ودافعة عظمى. ولكن مثلما يمكن قراءته كقوة تسامح واعتدال وتعددية، فإنه يمكن قراءته كقوة تعصب وانغلاق وقسوة.

ويجدر القول إن كلا هاتين القراءتين مجرد تحوير أيديولوجي للإسلام.

الإسلام كرؤية، أقرب إلى فلسفة وجود وإيمان، لا تصلح لأن تؤخذ بأي معيار أيديولوجي، كائنا ما كان. لا ذلك المعيار "التسامحي" المفتعل، ولا ذلك المعيار المتعصب المفتعل أيضا.

وأقول "مفتعل" على الوجهين لأن الكثير منا يضيف إلى تلك الرؤية ما يُضفي عليها لونا طاغيا. وإذ لا يعجز عن العثور على أدلة تدعم تصوره، فإن الدافع الأيديولوجي سرعان ما يتحول إلى نوع من "قوة إنشاء" تبني شيئا جديدا، يبتعد عن قيم ومعايير فلسفة الوجود والإيمان التي يمثلها الإسلام. حتى لتبدو وكأنها حائط مجاور نبنيه، ليتكئ على حائط آخر، فنظن أن الثاني هو الإسلام وأن الأول نوع من دليل عليه! بينما يجب أن يكون هو الدال.

كل قادة الميليشيات الصفوية في العراق يراهنون على الفساد والنهب، لأنهما ضمانتهم الوحيدة. وهم يتناوبون الكراسي في ما بينهم فقط من أجل إطالة الأمد وتوسيع نطاق الفرصة لمن كسب ولم يكتف

وكمثل لوحة متعددة الألوان وكانت لكل منها غاية مختلفة أو مستقلة لتكشف عن أبعاد الرؤية العامة، القيمية والأخلاقية والاجتماعية والإيمانية، فإن طغيان لون ما، لا يفعل سوى أن يفسد اللوحة.

وها نحن نقف أمام لوحة أفسدت على كل وجه، وأنشئت على حائطها جدرانٌ وجدرانٌ.

مليشيويو المشروع الصفوي، دواعش ليس بأقل من دواعش المشروع الآخر. وهم قتلة ومجرمون ومفسدون على حدّ سواء. وعجزوا، كمثل تنظيم داعش نفسه، في أن يقيموا "سلطة مثال" جديرة بالحياة.

القتل، في حد ذاته، مشكلة طبعا. ولكن في مواجهة ميليشيات تحمي سلطة انحطاط أو فشل، فإن المشكلة لا تعود إلى القتل نفسه. وإنما إلى ما تريده منه.

الانتفاضة التي تعمّ العراق الآن، سوف تُسحق على نحو ما تمّ سحق كل الانتفاضات والاحتجاجات والتظاهرات السابقة. ولسوف تُواجه بالسلاح.

ميليشيات الولي الفقيه في إيران سحقت شعبا بأسره بالسلاح. ونقلت التجربة إلى سوريا لتسحق شعبا آخر حتى ولكأن البلاد أصيبت بعشر قنابل نووية لفرط ما لحقها من دمار. والشيء نفسه تكرر في اليمن.

هذه الميليشيات، بحكم طبيعتها الداعشية بالذات، لن تتردد في فعل أي شيء لسحق أي تمرد ضدها. وستظل تنهب وتفسد على المنوال نفسه. لأن ذلك جزء من طبيعتها أيضا. ولأن مخاوفها الطبيعية، وهي ترى أرضا تميد تحتها، تدفعها إلى الإسراع والزيادة في أعمال التخريب والقتل والنهب. ذلك أنه شريان الحياة الوحيد الذي يبقى لها إذا ما انقلبت عليها الأحوال.

كل قادة الميليشيات الصفوية في العراق يراهنون على الفساد والنهب، لأنهما ضمانتهم الوحيدة. وهم يتناوبون الكراسي في ما بينهم فقط من أجل إطالة الأمد وتوسيع نطاق الفرصة لمن كسب ولم يكتف، ولمن لم يكسب بعد.

وهم إذ ينقلون ما ينهبونه إلى الخارج، وإلى إيران بالذات، خوفا وتقية، فهم لا يدركون أن حاميهم حراميهم أيضا، لأنه هو نفسه يتصرف بالطريقة ذاتها.

هذه الميليشيات لن تُغلب إلا بشيئين: السلاح، وسلطة مثال قابلة للحياة.

الإيرانيون هُزموا في بلدهم، لأنهم لا يملكون السلاح. والسوريون هزموا أيضا لأنهم، حتى وإن ملكوا السلاح، فقد أحالوه إلى "سلطة مثال" متساوية في السوء. واليمنيون لا يزالون يتنازعون، سلاحا بسلاح، من دون أي فكرة عما يجب أن تكون عليه سلطة المثال الواجب الأخذ بها.

العراقيون يمكنهم أن يفعلوا شيئا آخر، ربما. السلاح متوفر والحمد لله. بقي الشيء الآخر. ولكن لا أدري إن كان انحطاطهم الثقافي الراهن يسمح لهم بالعثور عليه.